أدب الرحلة من المنظور الإثنوغرافي "رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا" أنموذجا

Travel Literature from an Ethnographic Perspective: *The Journey of Suleiman bin Siam to France* as a Case Study

سارة سكيو [1]*

[1] جامعة باتنة1، الجزائر

تاريخ الاستلام: 2024/05/01 ؛ **تاريخ القبول**: 2025/07/30 ؛ **تاريخ النشر**: 2026/01/15

الملخص

تَحوُم مُجريات بحثنا حول مَوضوُع الفني الرحلي، وما يَحملهُ هذا الاثر الأدَبي من زَوايا تَرتَبط بالبحث الإثنوُغرافي، حيثُ يَروُم هذا الأخير إلى دِراسة الأنَشِطة والتَفاعُلات الثَقافِية في مُجتَمع مُعين ضِمن إطار زَمَني مُحَدَد، أين انتبهنا لزاوية مُهمة في كون حَقيقة اذ أنه يَتمايز الخطاب الرحلي عن بَقية الأجناس التَعبِيرية الأُخرى؛ حيثُ تَكون زاوية النَظر هنا من مَنظوُر الرحالة والتي يوجهها صوب اكتشاف البلد الجَديد الذي هو بِصدد زيارته ورؤُية مَعالِمُه مَع التَعرف على طَبائِع وسَجايا سُكانها؛ حيثُ يُدون كل ما تُلاحظهُ عيناه ويراهم نقطة انعِطاف مُهمة في خطابه الرحلي، تَماماً مثلما حَصل مع سليمان بن صيام لما زار فرنسا؛ إذ وصَفَ في رِحلتِه أهم المَحطات التي عَرجَ عليها وقس على ذلك، ولتأكيد تَقمُص الرحالة لدور الباحث الإثنوغرافي اخترنا دراسة رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا عام 1852 السياسية الدافع.

الكلمات المفتاحية: ادب الرحلة، البحث، الأعراق البشرية، الجزائر، المجتمع

Abstract:

Our research revolves around nomadic art and the angles this literary work takes on, related to ethnographic research, which aims to study cultural activities and interactions within a specific society over a particular time frame. We paid attention to a critical angle: it distinguishes the nomadic discourse from the rest. Other expressive genres; The angle of view here is from the traveler's perspective, which directs him towards discovering the new country he is about to visit. He records everything that he sees, just as happened with Suleiman bin Siam when he visited France. In his journey, he described the essential stations he visited, and, based on that, to confirm that the traveler assumed the role of the ethnographic researcher, we chose to study the politically motivated trip of Suleiman bin Siam to France in 1852.

Keywords: Algeria, ethnicity, ethnographic perspective, society, Travel Literature

الاستشهاد بالمقال

سكيو سارة (2026). أدب الرحلة من المنظور الإثنوغرافي "رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا" أنموذجا. *مجلة أطراس*، *7*(1)، 543-552

https://doi.org/10.70091/Atras/vol07no01.37

* Email: [1]sarah.sekkiou@univ-batna.dz

This is an Open Access Article under The CCBY License

مقدمة

تكتب يعد السرد العربي من أنجع الأجناس الإبداعية التي نرصد فيها انعكاس الأنساق الاجتماعية والحضارية للمجتمع والبيئة يعاينها السارد، وأدب الرحلة بالذات قد كان له صدى واسع المدى وباع كبير في الآثار الأدبية العربية؛ حيث تمكن أصحاب هذا الفن من اكتشاف نمط الحياة الثقافية المرتبط بكل البلدان والأمصار التي يطرقون باب زيارتها، سواء كان ذلك عند الرحالة في الأدب المشرقي أو في المغرب العربي، لهذا راودنا الفضول حول ما هي علاقة الخطاب الرحلي بالانعكاس الثقافي؟ وما هو مضمون البحث الإثنوغرافي؟ وهل استطاع سليمان بن صيام في رحلته إلى فرنسا عام 1852 الدمج بين الانفعال الأدبي ودراسة الأطياف الثقافية للمجتمع الفرنسي؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات حاولنا قراءة الملامح الثقافية في الرحلة الصيامية التي رصدها الرحالة منذ الوهلة الأولى التي وقف فيها على أرض بلاد الإفرنج من وصف للأماكن والحدود الجغرافية وعادات وتقاليد ونحو ذلك.، يتمايز الخطاب الرحلي عن بقية الأجناس التعبيرية الأخرى؛ حيث تكون زاوية النظر هنا من منظور الرحالة والتي يوجهها صوب اكتشاف البلد الجديد الذي هو بصدد زيارته ورؤية معالمه مع التعرف على طبائع وسجايا سكانها؛ حيث يدون كل ما تلاحظه عيناه ويراهم نقطة انعطاف مهمة في خطابه الرحلي، تماما مثلما حصل مع سليمان بن صيام لما زار فرنسا؛ إذ وصف في رحلته أهم المحطات التي عرج عليها وقس على ذلك.. هذا الذي يجعلنا نطرق باب الحديث عن المنظور الإثنوغرافي لهذه الرحلة والتي استهلت من أرض الجزائر وصولا إلى فرنسا إبان فترة الاستعمار الفرنسي.

البعد الإثنوغرافي وأدب الرحلة

كثيرة هي العلوم الإنسانية الاجتماعية التي تعنى بمقاربة الحضارات ودراسة أنماط شعوبها، ومنها الإثنوغرافي والتي هي– دراسة وصفية لأنشطة جماعية انسانية معينة، سواء أكانت جماعية بدائية تقليدية أم جماعة معاصرة ومتمدنة، بالتركيز على بنيات القرابة، والتقنيات المادية، والمعتقدات الدينية، والتنظيم المجتمعي، واستعمال آلات العمل والاستثمار في الأرض... وتعد أيضا منهجية استكشافية تطبيقية في البحث العلمي في مجالي الإثنولوجيا والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ..(حمداوي، 2020، ص ص 119–120) أي أن الرحالة في خطابه الرحلي يسجل كل تلك الأطياف الثقافية الاجتماعية المهمة البارزة التي لفتت انتباهه، وتكون خاصة موسومة بالمنطقة التي هو إزاء زيارتها واكتشافها؛ ذلك أنه يصف تصرفات هذا المجتمع وبنية تكوينه من تصرفات وعادات وتقاليد، وتعرف الإثنوغرافيا أيضا بعلم الأجناس البشرية التي تهتم بدراسة الشعوب دراسة ميدانية وتحليلية للعادات والقيم والتقاليد والأعراف لجماعات سكانية محددة، وقد ارتبطت هذه المنهجية قديما بدراسة الشعوب البدائية، ومن هنا فالإثنوغرافيا –حسب حسين فهيم– هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة (حمداوي، 2020، ص 120) فمن المتعارف عليه أن الأنماط العليا/ البدائية تنبثق أساسا من الشعوب الأولى الأصلية، وتنتقل عبر الأجيال بشكل متوارث في اللاشعور الجماعي، بالأخص تلك القيم والممارسات التي تعبر عن مجتمع دون غيره، لذلك لابد من صاحب الرحلة الذي هو بصدد تدوين خصوصية الشعوب التي يصفها ويذكر محطاتها مباشرة وهو يعاين هذا البلد ويتعرف على أفراده بنفسه هذا الذي يقصد به بالمعاينة الميدانية الفعلية.

لابد من الاشارة إلى أن البحث الإثنوغرافي هو ذلك النوع من البحوث التي يتم إجراؤها بواقع طبيعي غير متكلف، وبواسطة معيشة الباحث الفعلية الملاحظة بالمشاركة لجميع وقائع السلوك ...ويعتمد المنهج الإثنوغرافي على الوصف

والتحليل باستخدام الكلمة والعبارة، عوضا عن الأرقام والجداول الاحصائية (معتوق و شماخي، 2018، ص 67) لذلك لا يخيم الغموض كثيرا حول علاقة الإثنوغرافيا بأدب الرحلة، فالرحالة يملك من القدرات والامكانيات ما يجعله باحثا إثنوغرافيا بامتياز خاصة إن كان شديد الملاحظة، سريع البديهة، فصيح اللسان ويجيد استخدام الكلم، لذلك نجد كثيرا من الرحالين هم أدباء وشعراء في الأساس، كونهم يمتلكون من الصفات السابقة الكثير. حتى أن كثيرا من بطون الكتب وألمعها في متون الرحلات تندرج ضمن فنون الأدب العربي الذي لا يختلف من ناحية الهيكل والخطوات الوصفية سواء في المشرق أو المغرب العربين أما القيمة الأدبية في الرحلات تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني وأسلوب الكتابة القصصي... ونمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافيا وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والاساطير...فالرحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهرة مختلفة في الحياة، يشاهدها أو يسمعها أحيانا وينقلها في رحلته (حسين، 1983، ص ص 8-6) أيضا للأديب تفاعل نفسي خاص يمر به أكثر من غيره، خاصة أنه يتميز بدفقة انفعالية تؤثر عليه، فيصف الأماكن والأحداث عن قرب أكثر وبإحساس في كثير من الأحيان يصل إلى المتلقي لدرجة أن لديه القدرة على الترغيب والترهيب، ففي نهاية المطاف الرحالة ليس بالآلة التي تدون ما تلقفه فحسب بل ما يميز أدب الرحلة هو استشعار الحالة النفسية التي يبثها صاحب الرحلة دون وعي منه في كثير من الأحيان، أيضا ابداؤه للرضى والانبهار في مواقف والنفور في أخرى، كل هذا يجعل من أدب الرحلة أعمق بكثير من المؤلفات التاريخية – فنرى في الرحلة نوعا من الحركة، وهي ايضا مخالطة للناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الانسانية، ولرصد بعض الجوانب حياة الناس اليومية... فقد كان للرحلات قيمة تعلمية ممن حيث انها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، واثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين (فهم، 1989، ص 15) لهذا يمكن القول أن الأدباء كانوا إثنوغرافيين بامتياز واستطاعوا أن يعاينوا ويعبروا عن تجاربهم وانطباعاتهم حول الشعوب والحضارات الجديدة التي ينقلونها بأمانة في خطابهم الرحلي وفق أسلوب مشوق ومثير مع الاستمتاع بوقتهم في ذات اللحظة.

إن أدب الرحلة لون أدبي له بواعثه وخصائصه وأدواته الفنية ورؤاه المضمونة، يتخذ من الوقائع مادة له، يقدم المعلومات في قالب أدبي بحيث يعمد إلى نقل عادات وغرائب البلدان والامصار، فيعمد الأديب الرحالة بقدراته ومهاراته إلى تقديم المشاهد والرؤى والأحداث الرحلية من خلال ذاته المتحدة باللحظة التي عاين فيها الأماكن، بمشاهدها ووقائعها سواء في لحظتها أو عند عودته إلى الديار (قيس، 2019، ص 26) فالأدباء من عاداتهم أن ينقحوا أعمالهم وينظموها حتى تكون في إطار جيد يستقبله المتلقي، والخطاب الرحلي فن مهم جدا فلابد من مراعاة سرد الحقائق كما هي، دون تزييف أو تحريف، حيث بلا أدنى شك يدون الرحالة أبرز المناظر والافكار التي يعيشها مباشرة حتى لا ينساها ولو لم تمن بأدق التفاصيل حينها لكن يكتب أهم ما يذكره بالمواقف، بعدها يجمع معلوماته منذ استهلاله للرحلة إلى غاية مرساها الأخير مع مراعاة اللفظ المحكم والأفكار المرتبة، حتى يتأتى للقارئ أن يعيش معه محطات الزيارة.

ولا ننسى أن الإثنولوجيا تبحث عن خصوصيات المجتمع الثقافية ومميزات حياته ونمط معيشته القائمة على عادات وتقاليد تعود إلى زمن بعيد يقودنا إلى اكتشاف عالم غريب عجيب من القيم... ولعل النص الرحلي استطاع أن يخوض هذه التجربة بكل نجاح حين كان الرحالة باحثا عن كل شيء، ومتلفتا لكل شيء في مختلف المجتمعات التي مرت بها رحلته... ثم إن الوقوف عند المنهج الإثنوغرافي راجع في الأساس إلى أن كثيرا من رحلات العرب تزخر بشكل كبير بالمحتوى

الإثنوغرافي (صالح، ص 164) إن أواصر التناص بين عالم الأديب المبدع والباحث الإثنوغرافي تلتقي في أدب الرحلة، فالرحالة أديب ومؤرخ ودارس أنثروبولوجي– بطريقة ما– فهو لا ينقل فقط صفوة البلد التي يزورها، بل يذكر كل شاردة وواردة وماله أثر مهم قد عرج عليه في محطاته الاستكشافية سواء كانت أمورا إيجابية أو سلبية، بمعنى أنه ينقلها بحذافيرها بكل أمانة ، وطبعا نجد ذاتية الكاتب في خضم كل هذا بين أسطر الرحلة وتكون على شاكلة تعبير عن رايه الخاص نظرا للإسقاط السيكولوجي لهذا الاخير على التجارب والمواقف الجديدة التي يمر بها.

نشير إلى بعض من اهداف المنهج الإثنوغرافي العديدة والتي منها:

- ربط التصورات والفروض الإثنولوجية النظرية بما هو عملي وتطبيقي وتجريبي واقعي، وفق رؤية علمية نزيهة، ومحايدة، وموضوعية.
- النزول إلى الحقل الميداني لملاحظة الظواهر الإثنولوجية ومعاينتها وفق مقاربة علمية موضوعية دقيقة ومركزة.
- جمع المعطيات والبيانات والمعلومات حول الظاهرة الإثنولوجية المدروسة.
- تدوين المعلومات وتسجيلها بشكل علمي دقيق.
- تنظيم تلك البيانات والمعلومات بشكل منهجي مركز.
- توصيف البيانات والمعطيات المرتبطة بجماعة بشرية معينة في زمن ومكان محددين.
- تحليل المعلومات الحقلية وتفسيرها وفق مقاربة سايكرونية... (حمداوي، 2020، ص 122)

وهذه الاهداف أو الإجراءات الإثنوغرافية يتبعها الرحالة، فطبعا مهما كان سبب رحلته فأكيد أنه سيهدف إلى معاينة واستكشاف خصائص ثقافية جديدة عليه، ومن الطبيعي أن يدونها ويذكرها، أيضا ما يميز النص الرحلي هو الأسلوب الفني الذي يطرح به الرحالة هذه الأحداث، فتكون ضمن إطار ممتع ومشوق حتى يتسنى للمتلقي استقطاب المعرفة الثقافية والجغرافية والتاريخية على شاكلة قالب فني ممتع ومشوق، أي كأنه يعيش مجريات المشاهد الرحلية بنفسه مصاحبا بصاحب الرحلة، الذي عليه أن يدقق فيما ينقله بنضج ووعي وفكر محايد، ولابد عليه أن يتدرج في سرد مراحل رحلته ويذكرها وفق الترتيب الزمني الذي كانت عليه، ذلك حتى ينقل التجربة بمصداقية تساعد المتلقي على الاستقبال النفسي الجيد.

لذلك يركز البحث الإثنوغرافي على وصف السياق، دون محاولة من الباحث فرض نظامه أو معتقداته على الموقف البحثي، ويقوم البحث الإثنوغرافي على افتراض أن السلوك الإنساني يتأثر تأثرا كبيرا بالبيئة التي يحدث فيها، وعليه فالفهم الحقيقي للسلوك يتطلب منا فهم تلك البيئة أو السياق بصورة متكاملة، ولذا فإن جمع البيانات والمعلومات يجب أن يجري في مواقعها وسياقاتها الطبيعية، وحيث تتم عملية تفسير البيانات في إطار السياق ذاته (بلقبي و سيفون، 2021، ص 43) فبطبيعة الحال المرتحل انسان يمر بانفعالات نفسية تتعلق بالظواهر الخارجية المحيطة به، وزيارته لمناطق وأمصار جديدة يعني طرديتا تغير البيئة التي اعتاد عليها، وهذا حتما سيؤثر على وضعيته النفسية وطريقة طرحه ووصفه لمن حوله من عادات ثقافية شعبية للأفراد الجدد عليه، لذلك من الأجدر في هذه المواقف أن يدون الرحالة مباشرة ما تلقفه عيناه وهو على أرض هذه الحضارة الجديدة عليه؛ ذلك حتى ينقل الانطباعات كما هي وحتى ان استعصى عليه فهمها مع البداية، فلو تمعن فيها جيدا واقترب للاستفسار من ذوي الأمر لأزال الغموض عن هذه الأطياف المبهمة التي قد يسببها تغير المحيط والمناخ والسياقات الخارجية ككل بالنسبة للرحالة.

إن الاقدام على خوض غمار الرحلة نحو بلد جديد له اسباب ودوافع تتباين وتختلف من رحالة على آخر وهذه الدوافع تكون عادة كالتالي:

- ✓ دوافع دينية: كأن يرتحل للحج إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن وتوبة وتطهيرا للنفس من الذنوب...
- ✓ دوافع علمية او تعليمية: بغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم، ذاع صيت أبنائها في مجالات العلوم كالفقه والطب والهندسة وغيرها...
- ✓ دوافع سياسية: كالوفود والسفارات التي يبعث بها الملوك والحكام إلى ملوك وحكام الدول الأخرى، لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب...
- ✓ دوافع سياحية وثقافية: تصدر عن رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته، وحب التنقل وتغيير الأجواء والمناظر وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة...
- ✓ دوافع اقتصادية: للتجارة وتبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة...
- ✓ دوافع صحية: كالسفر للعلاج أو الاستشفاء... إضافة إلى دوافع أخرى (قنديل، 2002، ص ص 19-20)

ومهما تعدد أسباب الرحلة ودوافعها، فإن الرحالة–في معظم الأحيان– باحث إثنوغرافي يتعرف على الخصائص الثقافية للشعوب التي يزور أوطانها، ويصف سجاياهم ويؤرخ لأحداثهم ذاكرا تجربته الفعلية معهم دون تكلف أو ملل.

إثنوغرافيا الواقع في رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا

لقد ذكرنا فيما سبق آنفا أن فن الرحلة لا يختلف كثيرا في بنياته الكبرى وهيكله العام بين الرحالة في المشرق و في المغرب العربي، ورحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا تندرج ضمن الخطاب الرحلي الجزائري وتتعلق هذه الرحلة بزيارة سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسا إبان فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1852، لغرض سياسي استهل بدعوة فرنسا لثلة من الأعلام الجزائريين آنذاك، حيث تشخصت هذه الدعوة في شخص لويس الثالث لهؤلاء الأعلام الذين كانوا قد رحبوا بفكرة أن الجزائر فرنسية ومن ضمنهم صاحب هذه الرحلة الصيامية نسبة إلى اسمه، وبمأننا في سياق الحديث عن الإثنولوجيا ودراسة الابعاد الثقافية للشعوب، سنجد في رحلة سليمان بن صيام أن الرحالة قد تعرف فعلا على الحضارة الأوروبية الجديدة عليه وملامح الدين الصليبي، وقد الف قومها المركب للمجتمع الفرنسي المختلف الطبقات، وتمكن في كتاب رحلته من الجمع بين أدبية الرحلة ضمن أسلوب والفاظ متراوحة بين العربية الفصحى واللهجة الجزائرية أي الدارجة مضمنا رحلته مجموعة من القصائد الشعرية التي تحيلنا إلى تمثله النفسي إثر رحلته، وبين دوره كباحث إثنوغرافي ومؤرخ للواقع والرموز التاريخية..

بالحديث عن التماس الثقافي الذي يؤثر في صاحب الرحلة بداية من تلقيه الدعوة على أرض الجزائر؛ حيث يتجلى هذا التماس في تجاوبه بصدر رحب مع الآخر الأوروبي فبدأ بقوله" أمرني من يجب الامتثال إلى أمره والي قطر دايرة الجزائر وقطبه، صاحب الرأي السديد والجود الذي ليس فوقه من مزيد البطل الهمام والأسد الضرغام سعادة السيد راندون، لازال من ربه بعين العناية ملحوظا ومن شر حساده محميا محفوظا، فامتثلت لأمره السعيد وكان ذلك اليوم عندي كالموسم الجديد... (بن صيام، 2017، ص 2) وفي هذا المتن من الرحلة استعداد نفسي واضح من لدن سليمان بن صيام بغية تلبية الدعوة وخوض غمار هذه التجربة الجديدة، مع ترحيبه بفكرة الانفتاح الثقافي نحو الآخر الغربي الأوروبي، حتى وإن كان

يدرك بوعي تام أن الدافع وراء هذه الرحلة هو سبب سياسي بامتياز ويعني خيانته لوطنه، وسببها أن يتم استقطاب واستمالة أكبر عدد ممكن من المؤيدين في الجزائر لفرض الهيمنة الاستعمارية الكاملة على الجزائر.

تتقادم أحداث الرحلة ويصل سليمان بن صيام مع مجموعة من الأعلام الجزائريين إلى فرنسا، فكانت أول محطة عرّج عليها هي مدينة سيط، وعلى بساط أرض هذه المدينة تبدأ مرحلة استكشاف الرحالة للأطياف الثقافية الجديدة لهذا العالم الجديد الذي يزوره مع قوله "دخلنا مدينة سيط عشية السابع والعشرين من ابريل، وبتنا بها ليلتنا، ولم يمكننا أن نرى ما احتوت عليه من المحاسن لسفرنا منها غداة دخولنا قاصدين مدينو مونييلي في كروسة الدخان فوق طريق من الحديد وصفتها على وجه الاختصار هو أنهم جعلوا شرايط من حديد من أول الطريق إلى آخرها في غاية التمكن، بمسامر من حديد مع استوائها تسير الكروسة فوق تلك الشرايط، وذلك اختراع عظيم بيانه انهم جعلوا هذه الشرايط في الأرض يمينا وشمالا مرتفعة في اسفلها الذي تحت الأرض... (بن صيام، 2017، ص 4) اذن قد بدأت المعاينة الميدانية لصاحب لسان الحال في الرحلة للثقافة الفرنسية، وأول ما انتبه له ودونه هو التقدم المدهش عنهم في مجال النقل وكم هو مريح وسريع، فإعجابه بوسيلة النقل هذه واضح لا لغط فيه، فهي بداية "البحث الإثنوغرافي الذي هو منهج لبناء الحقائق، واستنتاج الدلائل والبراهين من المشاهدة الفعلية للظاهرة المدروسة، ويتطلب هذا المنهج من الباحث معايشة فعلية للميدان أو الحقل موضع الدراسة، وعليه يكون الباحث الإثنوغرافي من النوع المشاهد المشارك (معتوق و شماخي، 2018، ص 67) هذا الكلام ينطبق فعليا على سليمان بن صيام هنا فهو يلاحظ، ويصف ويدقق بغية فهم كيفية تحرك هذه العربة، بل حتى بحث عن دينامية الحركة ومدار التسارع فيها ومكوناتها فقد اسهب الحديث عنها.

يكمل مدون الخطاب الرحلي تعرفه على هذه الحضارة الأوروبية المتجذرة الأصول التاريخية، ويردف بحثه الإنثوغرافي بالوصف الجغرافي لبلاد فرنسا، من طبيعة مناخ وتضاريس وحدائق وقس على ذلك..، وله باع كبير في هذا الموضوع بالذات تحديدا لما وصل مدينة مونيليي في "28 أبريل، ولما دخلناها قصدنا واليها السيد الجنرال صانه الله فلما مثلنا بيد يديه رحب بنا مع اظهار الفرح بقدومنا، وعرفه بكل واحد منا السيد الكولونيل دريو وأمر قبطانه أن يذهب معنا إلى بستان عجيب فلما دخلنا إلى ذلك المتنزه وجدناه من أحسن ما يكون مشتملا على أنهار وازهار ومناره ومقاعد ومياه متدفقة يسمى بيروا ورأينا به ماء محمولا فوق أقواس في غاية العلو يتدفق في ذلك البستان، أخبرنا القائم به أن ذلك الماء مجلوب من جبل بعيد (بن صيام، 2017، ص 5) إن ما يفعله الرحالة هنا هو وصف للثقافة الفرنسية التي تتميز بطبيعتها الخلابة واخضرار فيافيها، ودهشة سليمان بن صيام بهذا الجانب الطبيعي ليس مبالغا فيه ولا نلحظ من أسلوبه التعبيري أنه متكلف فيه، ذلك راجع إلى طبيعة المناخ في الجزائر أثناء مغادرته لها، فبسبب الاستعمار الفرنسي تشوهت البيئة واندثرت معظم التضاريس الجميلة..

ينقل الرحالة –حسب رأينا– كل ما يمر به بأمانة وترتيب سيكروني حسب محطاته في الرحلة، فبعد تعرفه على بيئة وطبيعة البلاد الفرنسية وأجاد في وصفها، ينتقل إلى الحديث إلى أمر آخر لفت انتباهه وهو الهندسة المعمارية والهياكل المبنية والقصور المبهرة ، فيستمر في رحلته " في 29 يوما من أبريل وصلنا على بلدة تسمى افينيون في كروسة الدخان فوق طريق الحديد، دخلناها في يومنا وراينا بها ما يستغرب من البناء المحكم العجيب، فيها دار معدة لاجتماع البابا صات وأهل العلم في الدين المسيحي، فيالها من دار قد فاقت ما فيها من الترصيص بالصخور والصور حتى تحير فيها العقول، وسافرنا منها أول يوم من ماي قاصدين بلدة فلانص في مركب الدخان في النهر، الذي هو كالبحر... رأينا فوقه قناطر تمر من

تحتها المراكب في غاية العلو والاتقان مصنوعة من سلك الحديد والبناء العجيب (بن صيام، 2017، ص 6) حتى اللحظة يستمر إعجاب الرحالة بالمرافق المشيدة و الطبيعة و طابع الأناقة في التصميم عند الفرنسيين، فكل مدينة يدخلها ويصفها تنسيه جمال المدينة التي انبهر بها قبلها، لذلك انفعال سليمان بن صيام وحماسته في الاستمرار بالرحلة في موجة الارتفاع الملاحظ، وهذا دليل على استمتاعه بوقته أثناء الرحلة السياسية الدافع، وكأنه قد نسي أصلا سبب الدعوة الموجهة له وانشغل بالبحث الإثنوغرافي والانفتاح على الثقافة الغربية طبعا يمكن تفسير هذا بحدوث صدمة بين واقع ما يراه الآن وما كان يعيشه في الجزائر.

ويستمر في الرحلة بقوله " وصلنا إلى مدينة ليون في اليوم الثاني من مايو، دخلناها فوجناها من أعظم المدن وأجودها وفي الحقيقة هي ثاني كرسي دولة فرنسا مشتملة على منارة ومقاعد واشجار وأزهار ورنات أطيار تغنيك عن سماع الأوتار، في وسطها واد عليه قناطر من الحديد لم ترى العيون مثلها ولا سمعت الاذان بشبهها، قابلونا أهلها أحسن قبول وفرحوا بنا كلهم، منهم من فرح بلسان المقال وآخرون بلسان الحال، ثم مشوا بنا إلى كنيسة وجدنها من أعظم الكنائس وأجودها مع الضخامة والتشييد في البناء الغريب والرفاهية (بن صيام، 2017، ص 7) طبعا تتعلق الرحلة بذكر اطياف الحياة ونمطيتها، التي تختلف من حيز جغرافي إلى آخر، ودخول الرحالة إلى مدينة ليون قد أخذ عقله وسلبه القدرة على تجميع الافكار، ليس فقط بسبب المناظر والفسحات الجديدة التي عاينها في هذه المدينة، بل ايضا بسبب استقبال أهلها له ولرفائه في الرحلة، لدرجة أن المتلقي يحس من متون الكتاب أنه وسط ناس من أهله، وأن المواطنين الفرنسيين ودودون جدا ومنفتحون على الآخر مرحبون بالثقافات المغايرة حتى وإن كانت في مسار غير توجههم الديني.

بعدها أخذ الرحالة ووفده من الجزائر إلى المعالم الصليبية – إلى كنيسة وجدناها من أعظم الكنائس وأجودها من الضخامة والتشييد في البناء الغريب والرفاهية، ورأينا بهذه المدينة دار يسمونها دار التصاوير مليانة بالتصاوير المنحوتة من الرخام والمرمر الجيد وتصاوير أخرى في حيطان تلك الدار بحسن الصناعة التي لا فرق بينها وبين الأدمي إلا بعد الكلام، حتى إذا دققت النظر في الصورة التي في الحائط تراها تتبعك بنظرها... ورأينا بهذه الدار أيضا انسانا ميتا موضوعا في صندوق من زجاج قد يبس جلده على عظمه، مع بقاء شعر رأسه ولحيته وبقاء أسنانه على حالها سألت عنه فأخبرونا أنهم أتو به من بلاد مصر (بن صيام، 2017، ص ص 7–8) إذن قد بدأ الباحث باكتشاف أغوار الثقافة الدينية المسيحية في الأرض الإفرنجية، واسلوب هذا الأخير في نقل مشهد دخوله للصرح الكنيسي وردة فعله الأولى حول عظمة المكان، تنقلها لنا كلماته المحمولة على الدهشة فقد وسمها بالبناء الغريب، أي أنه لم ير مثيلا له من قبل، ويستمر ببحثه الإثنوغرافي مشاركا وناقلا لما جذب انتباهه من فن معماري ونحت ورسم يكاد من شدة اتقانه وجودته يكون حقيقيا، بالأخص التماثيل المنحوتة التي ترمز للمقدسات المسيحية

وتجسيد لشخصيات الملوك، فالبعد الإثنوغرافي واضح في هذا المنعطف من متن الرحلة، فالرحالة لا يكتفي فقط بالمعاينة والوصف، بل يتعمق مستفسرا ممن حوله ويبحث عن ماهية كل ما يثير فضوله، مثل سؤاله عن ذلك الانسان الميت الذي تحدث عنه، والذي بعد استفساره عن خلفتيه اتضحت له أنها مومياء محنطة ثم جلبها من مصر ووضعت في هذا المتحف وكأنه باستقصائه هذا قد فتح باب البحث عن بعد إيديولوجي مختلف جديد عليه وهي الحضارة الفرعونية المصرية.

يتعين أيضا على المعاين الإثنوغرافي التعرف على الهوية الثقافية الشعبية للبلد التي يزورها، وبالفعل كان لسليمان بن صيام إمكانية التعرف على خصال وطبيعة الشعب الفرنسي، إذ قال– أما أهل هذه البلدة مع كثرة عددهم لم تجد شخصا منهم

غير مشتغل مع رفاهية عيشهم واعتنائهم بالصناعات المفيدة كنسج الحرير والذهب بالآلات اللطيفة وأمر أهل ليون بهذه النفائس واضح مشهور... وأما أمر أهل فرنسه في الاعتناء بالغراسة والحراثة والنظافة والتشييد في البناء وتكثير التجارة والصنائع فهو أدل دليل على صلاح رأيهم وامتثالهم لأمرائهم حتى اشتهر العدل في برارهم وبحارهم (بن صيام، 2017، ص ص 8-10) أساس هذا الكلام الذي يصرح به مدون الرحلة عن سجايا أفراد هذا المجتمع الإفرنجي هو التجربة والمعاينة البصرية، فهو لم يسمع عنهم بل راقبهم وتمعن في مدى أهمية أثر ثقافة العمل والانضباط كم هو واضح مجبول عليه كل فرد منهم، فهذه السلوكيات الحضرية والممارسات الاجتماعية التي لقفها في لحظتها هي عامة ومتأصلة يقوم بها ليس أهل هذه المدينة فحسب بل حتى سكان الريف؛ لذلك أرجع الرحالة ازدهار فرنسا عسكريا وماديا في معظم القطاعات إلى الوعي الاجتماعي الثقافي لهؤلاء الأفراد الأوروبيين وانصياعهم، لخدمة وتأدية واجبهم تجاه موطنهم، فخضوعهم لأوامر ولاتهم لم يكن سوى عن قناعة تامة.

إن دراسة الأبعاد المادية من مبان ومنشآت ليس فقط ما اقتصر عليه بحث سليمان بن صيام في رحلته، بل تعمق وأسهب كثيرا في الحديث عن الآثار المعنوية والنفسية لأهل مدينة باريس بالأخص فقال أنهم ليسوا بالمقلدين في الأمور أصلا، بل يطلبون دائما ادراك معرفة أصل الشيء، والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة... فليست العوام بهذه البلاد كعامة غيرها من البلدان ولما كانت ساير العلوم والفنون والصنائع الرضيعة مدونة بالكتب... وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع شيئا لم يسبق إليه أو يكمل ما اخترعه غيره ابتغاء الثناء في حياته وحسن الذكر بعد وفاته (بن صيام، 2017، ص 12) فمن ضمن أدوات البحث الإثنوغرافي المحادثات والسؤال هذا الذي ساعد الرحالة في كشف الجانب النفسي والنمط التكويني لهوية الشخص الفرنسي، الذي يطمح للنبوغ وتخليد اسمه وليس فقط عيش حياة روتينية، فاقتراب صاحب الرحلة من هؤلاء السكان واستفساره حول سبب اجتهادهم، في مختلف العلوم رغم وفرة العيش المترف لديهم قد أبان له أن هذا الطبع فيهم قد بث صميم تكوينهم منذ أجدادهم الأوليين الذين ورثوا منهم هذه القيم والأنماط العليا في اللاوعي الجماعي، وللرحلة آفاق بحثية عميقة يكملها الرحالة إلى غاية انتهاء زيارته لفرنسا وعودته للجزائر، متشبعا بالانبهار الحضاري الثقافي الذي التمسه في رحلته.

خاتمة

صفوة القول فيما تم التعريج عليه في الصفحات البحثية السابقة حول موضوع أدب الرحلة من المنظور الإثنوغرافي والذي قاربنا فيه رحلة سليمان بن صيام إلى فرنسا هو:

-أن البعد الإثنوغرافي يتعلق بالمقاربة الدينامية الوصفية للأعراق البشرية، حيث يدرس سلوكيات الأفراد التي تختلف من بيئة اجتماعية وثقافية إلى أخرى.

-تكون دراسة الانساق الثقافية لشعب في بلد معين وفق إجراءات وخطوات عديدة، باستخدام وسائل البحث وآليات التدوين، أهمها مبدا المعاينة الميدانية ورصد الحقائق ودراستها ضمن أطر جغرافية وزمنية معينة.

أن الرحالة يمكن اعتباره باحثا إثنوغرافيا، حيث في خضم رحلته التي يخلدها في الآثار الأدبية يؤرخ ويرصد أعم الأبعاد الخاصة بالأعراق البشرية، من اسلوب في الحياة وقيم وعادات تخص المنطقة التي يزورها، مدونا أهم ما تلقفه عيناه واصفا ومفسرا في -بعض الأحيان- لاهم الأطياف الشعبية الجديدة عليه.

–يعد الخطاب الرحلي من المتون الأدبية التي استطاعت الظفر بدمج عالم الابداع والأثر التشويقي مع عالم البحث الإثنوغرافي والتأريخ لحضارات الأمصار المختلفة.

–أن الرحلة الصيامية لصاحبها سليمان بن صيام أحد اهم الرحلات في فن الرحلة الجزائري؛ ذلك أن الرحالة استطاع أن يقوم بدور الباحث الجاد لاكتشاف الهوية الثقافية الفرنسية بعيدا عن البعد الاستعماري أي من المنظور الإثنوغرافي فبعيدا عن الدافع السياسي للرحلة فقد اهتم مدون الرحلة بدراسة النمط الفرنسي في الحياة معتمدا على اسس المنهج الإثنوغرافي من دراسة ميدانية وملاحظات ومقابلات رسمية وغير رسمية...

–أن هذه الرحلة الاستكشافية ذات الدوافع الخفية نموذج للبعد الثقافي في أدب الرحلة، فقد احتوت على العديد من احصاءات للحواضر والمدن، ودراسة للأطياف المادية والمعنوية لبلاد الإفرنج الفرنسية من الاستهلال الأول للرحلة إلى غاية انتهائها.

لمحة حول الكاتب

سارة سكيو مواليد 8/5/1995 بولاية خنشلة، متحصلة على شهادة الدكتوراه تخصص أدب قديم سنة 2023 من جامعة باتنة1، ذات خبرة اربع سنوات تدريس في الطور الجامعي كأستاذة مؤقتة بين جامعة عباس لغرور خنشلة وجامعة باتنة1، صاحبة رصيد علمي ومنشورات علمية تفوق الثلاثين مشاركة علمية بين ملتقيات ومؤتمرات دولية ووطنية، وأيضا لدي عدة مقالات علمية منشورات في مجلات وطنية صنف ج ومجلة تصنيف ب .. بالإضافة إلى كتاب ذو ترقيم دولي يتعلق بالأدب الغزلي القديم. 0000-0001-7537-3301

التمويل: هذا البحث غير ممول.

شكر وتقدير: لا ينطبق.

تضارب المصالح: يعلن المؤلفون عدم وجودأي تضارب في المصالح.

الأصالة: هذه البحث عمل أصلي.

بيان الذكاء الاصطناعي: لم يتم استخدام الذكاء الاصطناعي أو التقنيات المدعومة بالذكاء الاصطناعي

المراجع

Archana, V. (2022). Teachers' perception on digitalization of education. *Journal of Emerging Technologies and Innovative Research (JETIR)*, *9*(1), 713–719.

Ayu, I. S., Nunuk, S., Dewi, R., & Suharno. (2017). Teachers' perceptions towards digital-based teaching material. *Advances in Social Science, Education and Humanities Research*, 136–143.

Hamed, A., & Fayiz, A. (2017). Teachers' readiness to implement digital curriculum in Kuwaiti schools. *Journal of Information Technology Education: Research*, *16*, 105–126.

Richard, B., & Jura, F. (2021). Teachers' perceptions of the use of electronic learning resources in selected secondary schools, Marondera Urban, Zimbabwe. *International Journal of Humanities, Social Sciences and Education (IJHSSE)*, *8*(7), 26–37.

Rita, J. H., Mary, B. T., & Marlo, J. (2019). Educators' perceptions of technology integration into the classroom: A descriptive case study. *Journal of Research in Innovative Teaching & Learning*, *12*(3), 236–249.

Shalendra, K., & Ben Kei, D. (2016). Integration of learning technologies into teaching within Fijian polytechnic institutions. *International Journal of Educational Technology in Higher Education*.

بن ناصر الرحبية، أ. ب. أ.، &صبري، ش. س. م. (2022). اتجاهات معلمي صعوبات التعلم نحو توظيف السبورة التفاعلية في العملية التعليمية ومعوقات استخدامها بسلطنة عمان .*مجلة العلوم التربوية والنفسية*، (31)*6*، 46–74.

حسن، ح. ب. م. ش. ح. (2017). اتجاهات معلمي الرياضيات تجاه استخدام السبورات الذكية في تدريس الرياضيات. البحرين.

شلغوم، س. (2020). الرقمنة كآلية لضمان جودة العملية التعليمية .*المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والسياسية والاقتصادية*، *57*، 147–160.

عبد المجيد، ل .(2009). *تصورات معلمي المدرسة الابتدائية للإشراف التربوي في ظل التدريس بمقاربة الكفاءات* (أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة.

عبد محسن، ح .(n.d.) .تصورات طلبة المدارس الابتدائية في العراق نحو توظيف استراتيجية لعب الأدوار .*مجلة الجامعة العراقية*، (56)*2*، 387–396.

علي، ن.، &حجازي، ن(2005). الفجوة الرقمية .عالم المعرفة.

مالك، إ. أ .(2020). المناهج الدراسية المعاصرة وسبل الارتقاء.الطبعة الأولى.

محمد، ا. أ. د .(2016). المناهج التربوية وتحديات المرحلة (الطبعة الأولى). مركز الكتاب الأكاديمي.

محمد، ب.، &رحموني، د. (2015). المناهج التعليمية بين التطورات وتحديات المستقبل .*الممارسات اللغوية*، *(31)*، 151–186.

محمد، ش. ب.، &توفيق، ح. ح. (2021). اتجاهات معلمي الرياضيات نحو استخدام التعليم الإلكتروني في المدارس الثانوية في محافظة طولكرم .*مجلة جامعة فلسطين التقنية للأبحاث*، (1)*9*، 50–77.

محمد، ش. هـ.، صلاح الدين، ص. إ.، &محمد، ا. ا. (2018). تصنيف بلوم الرقمي وعلاقته بمهارات القرن الحادي والعشرين .*مجلة البحوث في مجالات التربية النوعية*، (17)*3*، 119–137.

مسيعد، م. ا. ف. (2022). اتجاهات المعلمين نحو توظيف التعليم الإلكتروني لتحقيق معايير الجودة في العملية التعليمية في المرحلة الابتدائية .*مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع*، (76)، 45–61.